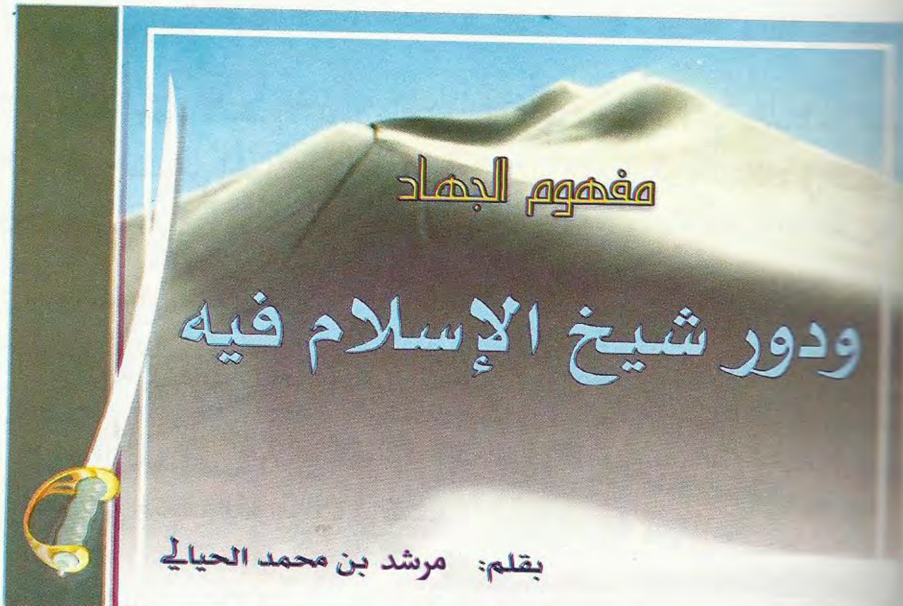


الحمدلله والصلاة والسلام على إمام المجاهدين وقائد الغر المحجلين .. أما بعد:

الجهاد لغة وشرعاً:

لغة: فهو بذل الإنسان وسعه وطاقته وهو كل ما يملك من قدرة.

وشرعاً: فهو بذل المسلم طاقته في سبيل نصرة الإسلام والدفاع عن حياضه ابتغاء مرضاة الله. وقُيِّدَ الجهاد في سبيل الله لَيَدُلَّ على المعنى الضروري لِتَحَقُّقِ الجهاد الشرعي.

وقد جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تحثّ على الجهاد وتبيّن فضل المجاهدين، وتعلن أن الجهاد يجب أن يكون في سبيل الله، وسنوضح ذلك في فصول قادمة بإذن الله.

من فضائل الجهاد:

١- هو عنوان المحبة الصادقة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (بل قد جعل الله أساس محبته ومحبة رسوله الجهاد في سبيله، والجهاد يتضمن كمال محبة ما أمر الله به وكمال بغض ما نهى الله عنه، ولهذا قال في صفة من يحبهم ويحبونه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤])[١].

٢- وهو أفضل أنواع التطوّع ولهذا قال العلماء رحمهم الله: أن الرّباط في سبيل الله والمقام في الثغور أفضل من المجاورة في المساجد الثلاث (المسجد الحرام ومسجد رسول الله ﷺ والمسجد الأقصى) وتعليل ذلك أن الرباط من جنس الجهاد والمجاورة غايتها أن تكون من جنس الحج وقد قال الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ﴾[٢].

٣- والجهاد يوجب الهداية التي تحيط بأبواب العلم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، يقول شيخ الإسلام رحمه الله (فجعل لمن جاهد فيه هداية جميع سبله تعالى ولهذا قال الإمامان عبدالله بن مبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما إذا اختلف الناس في شيء فانظروا ما عليه أهل الثغر فإن الحق معهم لأن الله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾)[٣]

٤- والجهاد يوجب تكفير الذنوب يقول شيخ الإسلام رحمه الله: (ومن كان كثير الذنوب فأعظم دواءه الجهاد فإن الله يغفر ذنوبه كما أخبر في كتابه بقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ومن أراد التخلص من الحرام والتوبة منه ولا يمكنه

---

(١) «العبودية» (٩٧).

(٢) «أصول الدعوة» (٢٥٠).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤٤٢).

حقيقة الجهاد:

وحقيقة الجهاد لا تتم إلاّ بموالاة المحبوب فيما يحب ويكره، وهو مأخوذ من الجُهد الذي هو أعظم من الجَهد بفتح الجيم فالجهاد من الجُهد وهو المغالبة في سبيل الله بكمال القدرة ويتضمن شيئين:

١- استفراغ الوسع.

٢- أن يكون ذلك في تحصيل محبوبات الله[١].

فالجهاد دليل على المحبّة الصادقة فإذا ترك المسلم ما يقدر عليه من الجهاد في سبيل الله دَلَّ على ضعف هذه الموالاة في قلبه.

حكم الجهاد:

الجهاد بالنفس والمال لقتال الكفار فرض على الكفاية ولكن قد يكون فرض عين وذلك إذا احتل الكفرة بلداً من بلاد المسلمين.

فيتعين على كل من وُجِدَتْ فيه القدرة على الجهاد، وهذا حكم الجهاد بالنسبة لقتال الكفار أما بقية أنواع الجهاد التي سنذكرها فيختلف حكمها بحسب حال القائم بها.

فضائل الجهاد:

الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في فضائل الجهاد أكثر من أن تحصى بل لم يرد في ثواب الأعمال الصالحة مثلما ورد في فضل الجهاد والترغيب فيه وتعليل ذلك: (أن نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره في الدين والدنيا، ويشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة مثل محبة الله والإخلاص له والصبر والزهد)[٢].

---

(١) «العبودية» لابن تيمية ص(٧٢).

(٢) «أصول الدعوة» الدكتور عبدالكريم زيدان ص(٢٥٠).

رَدّه إلى أصحابه فلينفقه في سبيل الله عن أصحابه)[1].

٥- والجهاد ضروري لبقاء الأمّة مرهوبة الجانب: والتاريخ يشهد أنه ما من فترة مرّت على الأمّة قامت فيها بما يجب عليها من الجهاد واجتمعت كلمتها على طاعة الله ورسوله إلا وصرف عنها أطماع الكفرة والمنافقين وأعطاها سعادة الدنيا والآخرة، والعكس من ذلك إذا ما تركت الجهاد ورضت بحطام الدنيا وأصبحوا أحزاباً وشيعاً إلا وسَلَّطَ الله عليهم الأعداء من كل جانب، وبالجملة فإن الجهاد فيه خير الدنيا والآخرة وفي تركه خسارة الدنيا والآخرة، فمن عاش من المجاهدين كان كريماً سعيداً له ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، ومن قتل منهم فطريقه إلى الجنة.

أنواع الجهاد:

ولا ريب أن الجهاد له أنواع كثيرة، فهناك الجهاد بالسيف لردع الظالمين الطامعين عن ديار الإسلام، وهنالك جهاد اللسان والحجة وذلك لبيان شرائع الإسلام والرَّدِّ على شبهات المُبْطِلين، ومن ذلك جهاد المال وإنفاقه وبذله في وجوه البِرّ وخاصة على الغزاة في سبيل الله. وقد قام شيخ الإسلام رحمه الله بأنواع الجهاد كلها وتبين ذلك فيما يلي:

أولاً: جهاد المبتدعين ودحض أباطيلهم:

ولا ريب أن المبتدعة على اختلاف أنواعهم يكثرون حيث يَقِلُّ العلم وينتشر الجهل ويَجْثُمُ على قلوب الناس يقول شيخ الإسلام في هذا الصدد: (فإنّ هذا الصنف يكثرون ويظهرون إذا كثرت الجاهلية وأهلها، ولم يكن هنالك من أهل العلم بالنبوة والمتابعة لها من يظهر أنوارها الماحية لظلمة الضّلال، ويكشف ما في خلافها من الإفك والشِّرك والمحال)[2].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤٢١).

(٢) «مجموع الفتاوى»، «منهاج السنة النبوية» (١/ ٦).

وخطر أهل البدع على الأمة قد لا يقل عن خطر أعدائها الخارجيين لأنهم يَدُسُّونَ السُّمَّ في قالب النصح وإرادة الخير ويلبّسون على المسلمين دينهم حتى يَصْعُبَ عليهم تمييز الدخيل من الأصيل.

قلت: ولهذا جاءت أخبار السلف رحمهم الله متكاثرة في التنفير من المبتدعة حذراً من شَرِّهِم لتنكسر أنفسهم وتضعف عن نشر البدع ولهذا قاموا بجهادهم وذلك بهجرهم وترك مجالستهم، وتارة بعدم الأخذ عنهم وترك الرواية عنهم.

فالواجب على من لم يكن متين العقيدة قَوِيَّ الصّلةبالله صحيح النظر في العلوم الشرعية الابتعاد عنهم وعدم مخالطتهم بخلاف من تحصّن بالعلم الشرعي، وعنده فرقان ونور يستطيع التمييز بين الغثّ والسمين، وما أعظم ما قاله الذهبي رحمه الله في هذا الصدد: (إذا رأيت المُتَكَلِّمَ المبتدع يقول: دعنا من الكتاب والأحاديث وهات العقل فاعلم أنّه أبوجهل، وإذا رأيت السالك للتوحيد يقول دعنا من النقل ومن العقل وهات الذوق والوجود فاعلم أنه إبليس قد ظهر بصورة البشر أو قد حل فيه، فإن جبنت منه فاهرب، وإلا فاصرعه وابرك على صدره واقرأ عليه آية الكرسي واخنقه)[1]، وقد قام شيخ الإسلام رحمه الله بقمع المبتدعة والرَّدِّ عليهم وعلى أباطيلهم وقعّد من خلال ذلك قواعد وأصول يتكون منها منهج أهل السنة والجماعة في التعامل مع المبتدعين.

وقد تَمَثَّلَ جهاد الشيخ -رحمه الله- في الرَّدِّ على المبتدعة في عدة محاور رئيسية وهي:

أولاً: في مجال التأليف والتصنيف:

وكتبه رحمه الله طافحة في الرَّدِّ على المبتدعة وكشف عوراتهم وقد أخذت حيّزاً كبيراً من حياته ووقته مثل ردوده على الجهمية والصوفية وغيرهم من

(١) نقلاً عن «حلية طالب العلم» للشيخ بكر أبو زيد (ص٣٢).

الفرق الضالة بل اعتبر الشيخ رحمه الله جهاده مع المبتدعين نظير جهاده ضد التتر الذين أغاروا على ديار الإسلام.

ومن هذه التصانيف التي أَلَّفَهَا في الرَّدِّ على المبتدعين كالرَّدِّ على البكري والأخنائي والرَّدِّ على ابن المطهر الحلي والمسمى بـ «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية» ومنها «الصارم المسلول على شاتم الرسول» ومنها كتبه في الرَّدِّ على الفلاسفة والمنطقيين وغيرهم.

ثانياً: في مجال المناظرة:

والمناظرة بالتي هي أحسن وإقامة الحجّة الدامغة على المعاند من أنواع الجهاد التي ينصر الله بها أهل الحق خصوصاً عند اشتداد المحن وسيطرة أهل البدع.

وقد امتُحِنَ الإمام أحمد بن حنبل من قبل بفكرة خلق القرآن، وسُجِنَ وعُذِّبَ لرفضه هذه الفكرة وجرت بينه وبين المعتزلة المناظرة الكبرى التي ثَبَّتَ الله بها الإسلام وأهله بالإمام أحمد وكان يطالبهم بالدليل من القرآن أو من السنة الصحيحة، وشيخ الإسلام من الأعلام الذين رزقهم الله الحكمة وحُسْنَ البيان والجدل بالتي هي أحسن، ولعل أهم ما يتميز به الشيخ هو شعوره بالمسؤولية العظيمة الملقاة عليه، وأن الواجب في ذلك القيام بالميثاق الذي أخذه الله على أهل العلم بالبيان وعدم الكتمان، ولذلك كان يفتي بالحق بالرغم من صدور المراسيم بمنعه من الفتوى فكان رحمه الله يقول: (لا أستطيع أن أكتم العلم).

وقد نُقل عن الشيخ رحمه الله أنه ما ناظر أحداً فانقطع عن الجواب، وكان في مناظرته لأهل البدع في منتهى الأدب وحسن الخلق، وكان يستعمل الغلظة والخشونة إذا اقتضى الأمر، وقد عقدت له مجالس لامتحان عقيدته فكان بعدها تراه تارةً يخرج حراً وتارة يؤخذ به إلى السجن، ومن هذه المناظرات، مناظرته لإبطال حِيَلِ الصوفية

وخزعبلاتهم فقد نقل الشيخ محمّد بن عبدالهادي[1]: أنه في يوم السبت التاسع من جمادى الأولى سنة خمس وسبعمائة اجتمع جماعة من الأحمدية الرفاعية عند نائب السلطة بالقصر، وحضر الشيخ تقي الدين وطلبوا أن يسلم لهم حالهم، وأن الشيخ تقي الدين لا يعارضهم ولا ينكر عليهم وأرادوا أن يظهروا شيئاً مما يفعلونه فانتدب الشيخ وتكلم باتّباع الشريعة وأنه لا يسع أحداً الخروج عنها بقول ولا فعل وذكر أن لهم حيلاً يتحيلون بها في دخول النار وإخراج الزبد من الحلوق وقال لهم من أراد دخول النار فليغسل جسده في الحمام ثم يدلكه بالخل ثم يدخل ولو دخل لا يُلتفت إلى ذلك بل هو نوع من فعل الدَّجَّالِ عندنا وكانوا جمعاً كثيراً.

وقال لهم الشيخ صالح شنيع المينيع: نحن أحوالنا تتفق عند التتار ما تتفق قدّام الشرع وانفصل المجلس على أنهم يخلعون أطواق الحديد وعلى أن من خرج عن الكتاب والسنة ضُربت عُنُقُهُ وحَفِظ هذه الكلمة الحاضرون من الأمراء والأكابر وأعيان الدولة وكتب الشيخ عقب هذه الواقعة جزءاً في حال الأحمدية ومَبْدَئِهم وأصل طريقهم وذكر شيخهم وما في طريقهم من الخير والشر وأوضح الأمر في ذلك[2].

ثالثاً: إزالة مواضع الشرك التي تُعبد من دون الله:

وفتنة نصب الأضرحة والقبور على الأولياء والصالحين من أعظم الفتن التي أوقعت الجمهور الأعظم من المسلمين في عبادتهم واتخاذهم أنداداً من دون الله بل هي أصل فتنة الذين عبدوا الأصنام من المشركين، وقد أوحى الشيطان إلى هؤلاء أنَّ الدعاء يُستجاب عندها، وأن العبادات كالذّبح والنّذر والتّضرع عند هذه الأضرحة والقبور أسرع قبولاً من المساجد التي يذكر الله فيها.

---

(١) «العقود الدرية» للحافظ محمد بن عبدالهادي (١٩٤).

(٢) «العقود الدرية» للحافظ بن عبدالهادي (١٩٤)، وينظر «مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٤٥-٤٧٦)، مناظرة ابن تيمية لدجاجلة البطائحية.

وما زال الشيطان يتدرج بهـؤلاء السُّذَّج حتى أوقعهم والعياذ بالله في الشرك الأعظم بل وحَرَّضَهم على معاداة من ينهى عن ذلك ويدعوهم إلى إفراد الله بالعبادة، وأوحى إليهم أن هؤلاء يبغضون الصالحين ويهضمون حَقَّهَم وجاههم.

فالقضاء على هذه الأضرحة بالعلم والبيان، وبإزالتها عملياً إن توفرت القدرة من أعظم أنواع الجهاد وقد قام شيخ الإسلام وسعى عملياً في هدم هذه الأنصبة التي كانت في دمشق وأراح الناس من شرها وذلك من خلال العمل الجماعي والتعاون على ذلك يقول ابن القيم رحمه الله: (وقد كان بدمشق كثير من هذه الأنصاب، فيَسَّرَ الله كسرها على يد شيخ الإسلام وحزب الله الموحدين: كالعمود المخلق والنُّصُب الذي كان في مسجد التاريخ عند المُصَلَّى يعبده الجُهَّال، والنُّصُب الذي كان تحت الطاحون الذي عند مقابر النصارى ينتابه الناس للتبرك به وكان صورة صنمهم في نهر القلوط فينذرون له ويتبركون، وقطع الله سبحانه النصب الذي كان عند الرحبة يُسَرج عنده ويَتَبَرَّكُ به المشركون وكان عموداً طويلاً على رأسه حجر كالكرة وعند مسجد درب الحجر نُصُبٌ قد بني عليه مسجد صغير يعبده المشركون يَسَّرَ الله كسره)[1].

رابعاً: مناصحة ولاة الأمور والقيام عليهم بالإنكار وفق الضوابط الشرعية:

يقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب ورجل قام إلى إمام جائر، فأمره ونهاه فقتله»[2] ومناصحة ولاة الأمور ليس بالأمر الهيّن بل يحتاج إلى قوة القلب وشجاعته والاتصال العميق بالله تعالى وتعظيم أمره ونهيه تزيل عن قلب الآمر هيبة السلاطين، فلا يداهنهم طمعاً بما عندهم من متاع الدنيا وزخارفها، ولا يكتم الحق خوفاً وطمعاً أو فزعاً من بطشهم.

وواجب العالم والداعية من ذلك الإصلاح وإماتة الشر والقضاء عليه وإقامة الخير

(١) «إغاثة اللهفان» لابن القيم (١/ ٢٣٩-٢٤٠).

(٢) «السلسلة الصحيحة» (٣٧٤).

وتكثيره بالأسلوب الحسن، والتوجيهات السديدة التي يُرجى من ورائها الخير لا الشر، والاجتهاد ضمن حدود الشريعة في تخفيف الشر وتقليله، وتكثير الخير حسب ما يقتضيه المقام، تارة بأن يُغْلِظَ لهم وتارة بالقول الهَيِّن إذا خيف منهم البطش.

وقد قام شيخ الإسلام بهذا الأمر أحسن قيام، ومن ذلك المناقشة التي جرت بينه وبين قازان وهو رابع ملك مسلم من ملوك التتار، فقد وردت الأنباء في أواخر عام (٦٩٨هـ) بزحف التتار من إيران إلى حلب، فالتقى جمع قازان بجمع الناصر بن قلاوون، وبعدمعركة عنيفة هُزم جيش الناصر وَوَلَّى الجند إلى مصر وخلت دمشق من حاكم فبقي شيخ الإسلام صامداً مع عامة الناس واتفق مع أعيان البلاد أن يَتَوَلَّى الأَمْرَ بنفسه وأن يذهب على رأس وفد من الشام لمقابلة قازان، وهو لم يكن من ولاة الأمور الذين تجب طاعتهم ودارت بينهما مناقشة عنيفة بل ومحاسبة شيخ الإسلام لقازان على تصرفاته ونكثه للعهد والغدر بالمسلمين، ويكفيك في وصف قازان - ملك التتار- ما قاله القاضي شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فضل الله فيه يقول: (قازان حيث تجم الأسود في آجامها وتسقط القلوب داخل أجسامها خوفاً من ذلك السبع المغتال والنمرود المحتال، والأجل الذي لا يُدفع بحيلة محتال)[1].

وقد أشار ابن كثير في تاريخه وسَجَّلَ هذه المناقشة نقلاً عن البالسي الذي كان من أعضاء المقابلة قال البالسي: (أنَّ الشيخ ابن تيمية قال لقازان وترجمانه يترجم كلام الشيخ إنك تزعم أنك مسلم ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا فغزوتنا وبلغت بلادنا على ماذا؟ وأبوك وجدك كانا كافرين وما غزو بلاد الإسلام بعد أن عاهدونا وأنت عاهدت فغدرت فقلت فما وفيت، وجرت لابن تيمية أموراً مع قازان قام بها كلها لله وقال الحق ولم يَخْشَ إلاّ الله عز وجل ثم قرب قازان إلى الوفد طعاماً فأكلوا إلا ابن تيمية! فقيل له: ألا تأكل؟ فقال: كيف آكل من طعامكم وكله مما نهبتم من أغنام الناس، وطبختموه مما قطعتم من أشجار الناس؟

---

(١) «البداية والنهاية لابن كثير» (٤/ ٧)، «تاريخ الوردي» (٢/ ٢٨٧-٢٨٨).

وقازان مصغ لما يقول شاخص إليه لا يعرض عنه، وأن قازان من شدة ما أوقع في قلبه من الهيبة والمحبة، سأل من هذا الشيخ؟ إني لم أرَ مثله!! ولا أثبت قلباً منه ولا أوقع من حديثه في قلبي ولا رأيتني أعظم انقياداً لأحد منه، فأخبر بحاله وما هو عليه من العلم والعمل، ثم طلب منه قازان الدعاء فقام الشيخ يدعو له: (اللهم إن كان عبدك هذا إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا، وليكون الدين كله لك فانصره وأيده!! وملّكه العباد والبلاد، وإن كان قد قام رياءً وسمعة وطلباً للدنيا، ولتكون كلمتك السفلى وليذل الإسلام وأهله، فاخذله وزلزله! ودمّره واقطع دابره! وقازان يؤمّن على دعائه ويرفع يديه، قال البالسي، فجعلنا نجمع ثيابنا خوفاً من أن تَتَلَوَّثَ بدم ابن تيمية إذا أمر بقتله، فلما خرجنا من عنده، قال قاضي القضاة نجم الدين وغيره، كدت تهلكنا يا شيخ وتهلك نفسك! والله لا نصحبك من هنا فقال: وإني والله لا أصحبكم! قال البالسي! فانطلقوا عصبة وتأخر هو في خاصة نفسه ومعه جماعة من أصحابه، فتسامعت به الخواتين والأمراء وأصحاب قازان، فأتوه يتبركون بدعائه وهو سائر في طريقه إلى دمشق .. ووالله ما وصل إلى دمشق إلاّ في نحو ثلثمائة فارس في ركابه، وكنت أنا من جملة من كان معه، وأما أولئك الذين أبوا أن يصحبوه خرج عليهم جماعة من التتار فشلّحوهم أي سلبوهم ثيابهم وما معهم .. إلخ)[1]

خامساً: في المجال الميداني:

ولم يكتف شيخ الإسلام في الردّ على المبتدعة بأسلحة العلم والبنان بل كان رحمه الله سيفاً مسلولاً على الأعداء حيث قاد الجموع بقيادة السلطان لمحاربة التتار الذين أغاروا على بلاد الإسلام وكان وقتاً شديداً حيث عَمَّتْ الفوضى في كل مكان وراجت الإشاعات والأراجيف وامتلأت القلوب بالرعب، وبلغت القلوب الحناجر، وقد وصف هذه الحادثة الشيخ نفسه في صورة الكتاب الذي أرسله إلى السلطان

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير (٤/ ٧).

يُبَشِّرُه بالنصر والفوز المبين، وقارنها بغزوة الأحزاب وما حصل بين الغزوتين من التشابه في كثير من الأمور.

وكان دور ابن تيمية في هذه الواقعة دور المُرَبِّي الذي يبعث الأمل في النفوس ويعدهم بالنصر والغلبة، فلم يقف عند حَدِّ المواعظ والنصح، بل أخذ يعلن الجهاد ضد الغزاة ويبين أن الجهاد أصبح فرض عين على كل قادر من المسلمين وكان يحلف لهم بالله أنكم لمنصورون فيقول له بعض الأمراء: قل إن شاء الله: فيقول: أقولها تحقيقاً، لا تعليقاً فاطمأنّت النفوس وسكنت القلوب، ولكنَّ دعاة السوء أبوا إلاّ أن يأتوا الناس من ناحية أخرى فقالوا لهم كيف تقاتلون هؤلاء وهم مسلمون، فحصل عند المسلمين شبهة قوية وامتنعوا عن القتال، فأخذ شيخ الإسلام رحمه الله يبين لهم الحقيقة الشرعية في هؤلاء ويبين للناس حالهم ومعتقدهم حتى تحركت القلوب وثارت النّخوة في سبيل الله، والْتَفَّ المسلمون حول قائدهم، وخرج رحمه الله إلى ميدان القتال محارباً، فما كان لمثل الشيخ أن يدعو إلى الجهاد وهو أول الفارِّين وذهب إلى (مرج الصُفّر) وابتدأت الموقعة التي عُرِفَت بموقعة (شقحب)، وذلك في شهر رمضان والتقى الجمعان، ولما رأى وبلغه أن سلطان المسلمين مُتَرَدِّدٌ في القتال ذهب إليه وَحَثَّه على الجهاد وطلب منه أن يقف بجانبه في المعركة فتحركت هِمَّةُ السلطان وتحمس للقتال وقال الشيخ رحمه الله للسلطان: (من السنة أن يقف الرَجُلُ تحت راية قومه، ونحن من جيش الشام لا نقف إلا منه).

وكان رحمه الله يدور على الأجناد يأكل معهم وذلك ليبين لهم أن الإفطار جائز في مثل هذه الظروف والأحوال لِيَقْوَوا على القتال، ووقعت الحرب واشتد القتال وحمي الوطيس، واشترك شيخ الإسلام فيه، ووقف هو وأخوه موقف الموت وقد نقل الشيخ محمد بن عبدالهادي عن شجاعة الشيخ وبأسه عند القتال بقوله: (ولقد أخبرني حاجب من الحجاب الشاميين، أمير من أمرائهم ذو دين متين، وصدق لهجة معروف في الدولة قال: (قال لي الشيخ يوم اللقاء، ونحن بمرج الصُفّر، وقد تراءى الجمعان: يا فلان أوقفني موقف الموت قال: فسقته إلى مقابلة العدو، وهم ينحدرون كالسيل،

تلوح أسلحتهم من تحت الغبار المنعقد عليهم ثم قلت له: يا سيدي، هذا موقف الموت، وهذا العدو، وقد أقبل تحت هذه الغبرة المنعقدة، فدونك ما تريد قال: فرفع طرفه إلى السماء، وأشخص بصره، وحَرَّكَ شفته طويلاً ثم انبعث وأقدم على القتال، وأمّا أنا فخُيِّلَ إليَّ أنه دعا عليهم وأن دعاءه استجيب منه في تلك الساعة)[1].

واستَمَرَّ القتال طوال اليوم الرابع من رمضان حتى إذا جاء العصر أَذِنَ الله بالنّصر، فظهر جند مصر والشام وانحسر جند التتار، فلجأوا إلى اقتحام الجبال والتلال، وجند الشام ومصر يضربون أقفيتهم ويرمونهم عن قوس واحدة حتى انفلق الفجر، وإذا بالشيخ هو وأخيه يصيحان بأعلى صوتهما، تحريضاً على القتال، وتخويفاً للناس من الفرار حتى فتح الله النصر على المسلمين، وانكشفت الغمة وزال خطر التتار وخابوا بالهزيمة والخذلان ولم تقم لهم بعدها قائمة[2].

انحراف مفهوم الجهاد عند المسلمين:

كلما انحرف المسلمون عن الغاية التي خلقوا من أجلها وهي عبادة الله وحده لا شريك له واتباع نبيه ﷺ ظهر الانحراف في الأمة وتفشت البدع على اختلاف أنواعها وأشكالها وانطبق عليهم خبر الصادق المصدوق إذ يقول: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم في كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها قيل يا رسول الله: فمن قلة يومئذٍ؟ قال لا ولكنكم غثاء كغثاء السيل يُجعل الوهن في قلوبكم ويُنزع الرعب من قلوب

---

(١) «العقود الدرية» (١٧٨).

(٢) «العقود الدرية» (١٧٨) والجهاد بالسيف أكمل أنواع الجهاد، وإذا أطلق فغالباً ما يراد به بذل النفس وقتال أعداء الله ودون ذلك مراتب عديدة كجهاد النَّفس وقمع نوازع الشر فيها، وهو أصل جهاد الأعداء بمعنى أن من لم يكن مجاهد نفسه في ذات الله لا يقدر غالباً أن يثبت في ساحات القتال أمام الأعداء والمقصود أن المؤمن لا ينفك عن جهاد أبداً فهو مجاهد في جميع الأحوال: في الشدة والرخاء وفي العسر واليسر وفي المنشط والمكره: وهذا حال أصحاب رسول الله ﷺ نسأل الله أن يلحقنا بركبهم وإن لم نكن مثلهم.

عدوكم لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت»[1].

ففي الحديث بيان لمرض من الأمراض التي تصاب بها الأمة حين تنحرف عن الصراط القويم ويكون ذلك سبباً إما كونياً أو شرعياً أو كلاهما في تَسَلُّطِ الأعداء عليهم ينشرون سمومهم الفكرية، وتصل حينئذٍ الأمة كنتيجة حتمية لترك اتباع المنهج الصحيح الذي كان عليه الرعيل الأول إلى ما أخبر به ﷺ من نزع المهابة من قلوب الأعداء وإلقاء الوهن في القلوب.

وبسبب ظهور البدع المُضَلِّلَة وانتشار الجهل بقواعد الشريعة وأصول الدين انْحَرَفَ مفهوم الجهاد كغيره من المفاهيم الإسلامية عن مساره الصحيح ومعناه الشرعي عند طوائف عديدة من المسلمين، وكان دور شيخ الإسلام رحمه الله في ذلك هو تصفية العقيدة من شوائب البدع والضلالات وتوجيه النفوس والقلوب نحو التوحيد الخالص والمنهج السليم في العبادة والسلوك، فَرَدَّ بعنف على هذه الطوائف وما تدعوا إليه من أفكار منافية لمنهجية الإسلام وأصوله الصحيحة، وهاجم أيضاً بعضاً من رجال ودعاة هذه الطوائف الذين عاصروه أو سبقوه كأصحاب الحلول والاتحاد وغيرهم ومن هذه الطوائف:

أولاً: الصوفية: ولا شك أن الصوفية لعبت دوراً في تخريب عقائد الأمة منذ مطلع القرن الثالث عشر وحتى يومنا هذا مما أثّرت تأثيراً بالغاً في عقائد المسلمين لأسباب لا مجال لذكرها في هذا البحث، وقد شمل هذا التغير المساحة الكبيرة من حياة المسلمين وظهر أثر هذا التغير في الأمة من خلال العقائد الباطلة التي يعتقدها أصحاب الفكر الصوفي كالتَّعَلُّق بالأولياء والاعتقاد بهم وبأن لهم تأثيراً على حوادث الأرض ومجريات الأحداث، وكذلك الاعتقاد بوحدة الوجود ووحدة الأديان التي نادى بها ابن عربي والتي هي أصل البلاء وما أدت إليه من عقائد كالقول بإسقاط التكاليف عمن وصل إلى الفناء الروحي -زعموا- والحقيقة اليقينية وقد تدرجت

---

(١) رواه أحمد في مسنده وانظر «الصحيحة» (٩٥٨) و«صحيح الجامع الصغير» (٨١٨٣) و«المشكاة» (٥٣٦٩).

الصوفية في تخريب العقائد وهدمها إلى انسلاخ الكثير منهم عن الإسلام دون أن يشعروا بدعوى ما يُسَمُّونَه بالفيض والكشف (العلم اللدُنّي) وهكذا أتت على بقية الجوانب المضيئة من حياة الأمة فحولتها إلى ركام من الخرافات والأساطير والأوهام، ويا ليت الأمر وقف عند هذا الحد بل تعداه إلى ما هو أعظم من ذلك ألا وهو تصويب ما عليه الكفار والملاحدة من عبودية غير الله تحت مظلة التصوف[1].

ومن أعظم ما أفسدته الصوفية على المسلمين أن عَطَّلَت روح الجهاد في الحياة الإسلامية وانشغلوا عن الجهاد الأعظم الذي به حياة الأمة وعزها ومجدها بالجهاد الأكبر كما زعموا -وهو جهاد النفس، وسندهم في ذلك أحاديث لا تثبت عن المعصوم ﷺ، أو منامات لا يبنى عليها حكماً شرعياً ومن هذه الأحاديث الباطلة التي اعتمدوا عليها في تأييد دعواهم الحديث الذي فيه قول الصحابة (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر)، أي جهاد النفس وهو حديث منكر يقول فيه شيخ الإسلام -رحمه الله- موضحاً أنه باطل: (أما الحديث الذي يرويه بعضهم أنه قال في غزوة تبوك رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر فلا أصل له ولم يروه أحد من أهل المعرفة بأقوال النبي ﷺ وأفعاله وجهاد الكفار من أعظم الأعمال، بل هو أفضل ما تَطَوَّعَ به إنسان، قال تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى﴾)[2].

وبين في موضع آخر فضل الجهاد على جميع الأعمال الدينية بل إن الجهاد تَنْتَظِمُ فيه جميع الأحوال الشريفة والأعمال الزكية يقول رحمه الله: (ولهذا كان الجهاد سنام

---

(١) انظر بعض آثار التصوف المنحرف على الأمّة في «حقيقة التصوف» للدكتور محمد ربيع المدخلي.

(٢) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١١/ ١٩٧)، وحديث (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) رواه البيهقي في «الزهد» (١/ ٤٥)، والخطيب في «تاريخه» (١٣/ ٩٣-٥٢٤) والنسائي في «الزهد»، وأبو بكر الشافعي في «الفوائد المنتقاة»، والحديث مع ذلك منكر، انظر الضعيفة (٢٤٦٠).

العمل وانتظم سنام جميع الأحوال الشريفة، ففيه سنام المحبة وفيه سنام التوكل وسنام الصبر، فإن المجاهد أحوج الناس إلى الصبر والتوكل) ثم يقول: (وفيه أيضاً -أي الجهاد- حقيقة الإخلاص فإن الكلام فيمن جاهد في سبيل الله، لا في سبيل الرياسة، ولا في سبيل المال ولا في سبيل الحمية، وهذا لا يكون إلا لمن قاتل ليكون الدين كله لله ولتكون كلمة الله هي العليا، وأعظم مراتب الإخلاص: تسليم النفس والمال للمعبود)[1].

ولقد كان لهذا الفكر المنحرف الذي يؤمن به دعاة الصوفية أثره الواضح على حياة الأمة، فقد أتاح للأعداء الفرصة للاستيلاء على بلاد الإسلام، بل وصل الحد إلى أن كانوا عوناً للكفار على المسلمين يمدون لهم العون والمساعدة، والفضل يعود إلى عقيدة الحلول والاتحاد التي بها يؤمنون حيث يعتقدون أن ما عليه المشركون وعبدة الأوثان كله حق وصواب لأنه الله يتمثل في الجميع وما ثَمَّ إلا الله، ولهذا قال الشيخ صالح شنيع المينيع رئيس جماعة الأحمدية الرفاعية أمام شيخ الإسلام: (نحن أحوالنا تنفق عند التتار ما تنفق قُدَّامَ الشرع) كما مر ذكره.

وكذلك في عصرنا الحاضر كان لهذا الفكر المنحرف أثره الواضح حيث أتاح الفرصة لأعداء الإسلام من الفرنسيين وغيرهم من دول الغرب لاحتلال بلاد الإسلام، وكان لأقطاب التصوف ودعاتهم دوراً في مَدِّ العون والمساعدة للكفار ومظاهرتهم على المسلمين.

فعلى دعاة الإسلام وعلمائهم أن يعملوا جاهدين على رَدِّ ضلالات الصوفية وخرافاتهم ويُنَبِّهُوا المسلمين إلى خطورتهم وأن يحذروهم من عقائدهم الباطلة وأفكارهم الفاسدة.

ثانياً: الرافضة: منذ بزوغ شمس الرسالة المحمدية احترقت قلوب المنافقين غيظاً وخاصة اليهود فبدأوا منذ ذلك الوقت يكيدون للإسلام وأهله فقام عبدالله بن سبأ

(١) «العقود الدرية» (١٤٢).

اليهودي الخبيث لتحطيم صرح الإسلام المتمثل في مدينة رسول الله ﷺ لأنه علم أنه لا طاقة له للوقوف بوجه الإسلام وجهاً لوجه، وأول عمل قام به بعد مقتل الخليفة الراشد الثالث هو أن تظاهر بحب آل بيت رسول الله ﷺ فطغت هذه الفئة الخبيثة تسعى لتحطيم الإسلام من جذوره من خلال نشر الأفكار التي تضاد الإسلام، وقد عَانَى المسلمون من أصحاب عبدالله بن سبأ الويلات على امتداد التاريخ، وظهر خطرهم على الأمة قديماً إلى يومنا هذا في عدة أمور هي:

أولاً: فهم يعطلون الجهاد أصلاً ولا يرون الصلاة خلف أئمة المسلمين لاعتقادهم أن ذلك لا يجوز إلا خلف المعصوم، يقول شيخ الإسلام في وصف حالهم: (وهم لا يُصَلُّونَ جمعة ولا جماعة ولا يرون جهاد الكفّار مع أئمة المسلمين ولا الصلاة خلفهم، ولا طاعتهم في طاعة الله، ولا تنفيذ شيء من أحكامهم لاعتقادهم أن ذلك لا يُسَوِّغُ إلا خلف إمام معصوم، ويرون المعصوم قد دخل السرداب من أكثر من أربعمائة وأربعين سنة وهو إلى الآن لم يخرج ولم يره أحد ولا علّم أحد ديناً ولا حصل به فائدة بل مضرة ومع هذا فالإيمانَ عندهم لا يصح إلا به ولا يكون مؤمناً إلاّ من آمن به، ولا يدخل الجنة إلا أتباعه)[1].

ثانياً: فهم يرون كفر كل من اعتقد في أبي بكر عمر والمهاجرين والأنصار العدالة ويُكَفِّرُونَ أعلام الأمة وفقهاء المِلّة، وطبيعي مع هذا الاعتقاد أنهم يعاونون الكفار على المسلمين يقول شيخ الإسلام رحمه الله: (ولهذا السبب يعاونون الكفار من المسلمين فيُعَاوِنُونَ التتار على الجمهور، وهم كانوا من أعظم الأسباب في خروج جنكيز خان ملك الكفار إلى بلاد الإسلام، وفي قدوم هولاكو إلى بلاد العراق وفي أخذ حلب، ونهب الصالحية، وغير ذلك بخبثهم ومكرهم، لما دخل فيه من تَوَزَّرَ منهم[2] للمسلمين وغير من تَوَزَّرَ منهم وبهذا السبب نهبوا عسكر المسلمين لما مر

---

(١) «منهاج السنة النبوية» (١/ ٦٣).

(٢) «منهاج السنة النبوية» (١/ ١٣) بالتفصيل، ومعنى (توزّر) أي صار وزيراً.

عليهم وقت انصرافه إلى مصر في النوبة الأولى وبهذا السبب يقطعون الطرقات على المسلمين، وبهذا السبب ظهر فيهم من معاونة التتار والإفراغ على المسلمين، والكآبة الشديدة بانتصار الإسلام لما ظهر، وكذلك لما فتح المسلمون الساحل -مكة وغيرها- ظهر فيهم الأسف من الانتصار للنصارى وتقديمهم على المسلمين ما قد سمعه الناس منهم، وكل هذا الذي وصفت بعض أمورهم وإلا فالأمر أعظم من ذلك).

قلت -الذي ساعد التتار على دخول بلاد -بغداد- حتى قضى فيها على المسلمين هو نُصَيْر الطوسي وليس الغريب في ذلك بل الأغرب أن يقول بعضهم في حق هذا الخبيث: (ويشعر الناس بالخسارة أيضاً بفقدان الخواجة نُصَيْر الدين الطوسي وأمثاله ممن قدموا خدمات جليلة للإسلام) فأي خدمة جليلة في قتل العلماء واستباحة الأعراض بل ونقض شرائع الإسلام كلها ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ويذكر العلماء من أعمال نُصَيْر الطوسي أنه سيطر على المكتبات عند دخول التتار وأخذ ما يتعلق منها من كتب الرياضيات والفلسفة وأفسد الباقي، وكان يشرب هو وأصحابه الخمر في رمضان كما نقل ذلك عنهم شيخ الإسلام وهو أدرى بحالهم لقرب العهد بهم[(1)].

أساليب الاعداء في إماتة روح الجهاد عند المسلمين في عصرنا الحاضر:

لا شك أن معظم البلاد الإسلامية وقعت في براثن الأعداء، وكانت سياسة الأعداء من يهود وصليبيين، أنه بعد إكمال السيطرة على بلاد الإسلام هو الاتجاه إلى تقويض عقائدهم الصحيحة التي بها نجاتهم وعزُّهم، حتى ينشأ جيل من المسلمين يجهل معظم تعاليم الإسلام وما يدعو إليه من عقائد وأخلاق، ومن أفظع النتائج التي وصلنا إليها ما نراه من الانهزام العقائدي والانحلال الخلقي، وقد حدث هذا وفق

---

(1) ذكر ذلك الشيخ رحمه الله في المصدر السابق وهو أعلم بأحوالهم وما هم عليه من اعتقاد ودين وقد قيل (أهل مكة أدرى بشعابها) انظر «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٨/ ٦٣٦).

مخطط مرسوم وأهداف مدروسة، والناظر اليوم إلى واقع الأمة لَيدرك جلياً أن هذا الواقع وإن كان هو وفق سنّة الله التي لا تحابي الأقوام لأجل أنسابهم ما هو إلاّ نتيجة حتمية لتطبيق تعاليم اليهود وأعوانهم، وبروتوكولات حكماء صهيون -سواء كان ذلك عن علم من الأمة او غفلة منها وقد استعمل الأعداء على أساس هذا أمكر الأساليب في إماتة روح الجهاد عند شباب الأمة ومن هذه الأساليب:

أولاً: تشجيع الحركات الهَدَّامَة كالقاديانيّة وغيرها -كي تأخذ طريقها في تخريب عقائد المسلمين، ودعمها مادياً ومعنوياً، بل وجعلها تتمتع بحصانة دبلوماسية كي يتهيأ لها الجو في بث سمومها في قلب الأمة الإسلامية.

ثانياً: إشاعة كل ما يؤدي إلى تَفَرُّقِ الأمة واختلافها تحت ما يسمى بسياسة (فرق تسد) كي يسهل لهم السيطرة على الأمة، ويأمن الأعداء من خطر المسلمين ومن يقظتهم أو العودة إلى رشدهم. ومن أسباب الفرقة في الأمة هو وجود الفرق الإسلامية التي تدعو إلى ما يخالف أصول الإسلام المبنية على الكتاب والسنة واتباع منهج السلف رضي الله عنهم، وقد ظهرت هذه الفرق في الخوارج والسبئية (أصحاب عبدالله بن سبأ) ومنها نشأت كل الفرق التي عرفها التاريخ، وكانت هذه الفرق تتكاثر حتى بلغت اثنين وسبعين فرقة ورؤوس هذه الفرق وإن كانوا قد ماتوا إلا إن آثارهم في الأمة موجودة، ما زالت باقية وقد استطاعت أن تتسرب في صفوف المسلمين وتؤثر فيهم وتحدث أنواعاً من البلاء تغذيها الماسونية العالمية وتحركها لتؤثر في التوجيه والحياة الاجتماعية فتنشغل الأمة عن هدفها الحقيقي وغايتها العظمى ولا شك أن الوحدة بين المسلمين على أساس القرآن والسنّة شرط في نجاتها ممّا هي في مأزق وحيرة، وهي مفتاح التطور والنهوض وسنتكلم عن ذلك في فصل السبيل إلى الجهاد إن شاء الله تعالى.

ثالثاً: ترويج الفساد والدعوة إلى الرذيلة: ومن أساليب الأعداء الخبيثة التي أصبحت مرئية تطرق الأبواب ليلاً ونهاراً وفي كل لحظة تتحدى القيم والأخلاق والفطرة ألا وهي ترويج كل ما من شأنه أن يُحَطِّمَ الأخلاق ويسحق الفطرة

كالنّوادي الليلية والمسارح ومدارس الفنون وصالونـات الحلاقـة والمؤسسـات المريبـة التي تغذي الأفكار المنحرفة كالشذوذ الغريزي، وهذه المؤسسات لا علاقة لها بـالدين إطلاقاً وغرضها الأصلي تحطيم القيم الإنسانية لتتحول المجتمعات الانسانية إلى شريعة الغاب. واليهود بلا شك اليوم يهتمون اهتمامـاً بالغـاً لا مثيـل لـه في السـيطرة على الغناء الخليع والموسيقى الصاخبة والأفلام التجارية الـتي لا غايـة مـن ورائهـا سـوى الكسب التجاري ونشر الفساد في الأمة وحتى هذا الغناء الذي يُسَمَّى بالشـعر -مع أنه حرام- اختفى أيضاً ليحل مكانه هذا النموذج من الغنـاء الـذي يـؤذي الأسمـاع ويثير الغريزة من مكانها[1] نحو المنكر الشنيع، إن النتائج التي وصلت إليها الأمـة مـن وراء ذلك نتائج رهيبة ومذهلة جداً، فالانحلال الخلقي والانتكـاس عـن الفطـرة نحـو الحضيض لا مثيل له في تاريخ الأمم والمجتمعات فنحن عندما ندعو الأمة إلى أن تعود إلى رشدها ندعوها قبل كل شيء إلى أن تعود إلى وضعها الطبيعـي وإلى الفطـرة الـتي فطر الله الناس عليها ثم تتعلم الإسلام بالتدرج، وهذا الذي نـراه مـا هـو إلا نتيجـة لتقاعس الأمة عن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما أشار إلى ذلـك نبينـا محمد ﷺ في أحاديث عدة.

إن من السنن الكونية الـتي خلقهـا الله سبحانه، أن أبنـاء الأمـة حـين يغرقـون في الفساد والتَّرف وحين تتعلق نفوسهم بها، يكونونَ فريسة سهلة للأعداء، فلا يدركون حينئذ ما يحاك ضدهم من مؤامرات وخطط، ونتيجة ذلك تسلط الأعداء على رقابهم وأراضيهم وأموالهم وما يظلم ربك أحداً قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢].

والتاريخ يشهد بذلك فقد سلط الله على أهالي بغـداد وغيرهـا مـن بـلاد الإسـلام

---

(١) إن أغنية من هذا النوع يسمعها الشاب من الراديو والتلفزيون كفيلة بـأن تهدم في ربع ساعة أو على المدى الزمني للأغنية أن تهدم ما تبنيه في شهور فهل من مدكر!!.

ويكفرّ عنكم سيئاتكم ويحصل لكم خير الدنيا والآخرة، أعاننا الله وإيّاكم على طاعته وعبادته وصرف عنّا وعنكم سبيل معصيته..)[1].

تقوى الله من أعظم عوامل النصر:

وتقوى الله كما قال العلماء تتضمن فعل المأمور ومن أعظمها الصلاة والحفاظ عليها، وترك المحظور والصبر على المقدور وهي الحل لكل ما يعترض المسلمين من مصائب قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [المائدة:٦٥]، وكان عمر رضي الله عنه إذا جهّز جيشاً أمرهم بهذه الوصية الجامعة التي يجب على المسلمين أن يتدبروها ويعملوا بها يقول رضي الله عنه: (وإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدّة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن يكونوا أشدّ احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم وإنما يُنصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم، وإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلاّ نُنْصَرْ عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا، فاعلموا أن عليكم في سَيْرِكُم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا أن عدونا شرّ منا، فلن يُسلّط علينا فَرُبَّ قوم سُلّط عليهم شرّ منهم كما سلط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفّار المجوس فجاسوا خلال الديار، وكان وعداً مفعولاً اسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألون النصر أسأل الله ذلك لنا ولكم)[2]

---

(١) «العقود الدرية».

(٢) انظر مثلاً «مختصر سياسة الحروب» البيهقي -هذا غير البيهقي المحدث- (١٥-١٦) الباب الأول. و«أحكام الجهاد في الإسلام» (٢٣٩) الدكتور محمد عبدالعزيز.

الفريقين وسقوط الجرحى والقتلى بالمئات من ضحايا كرة القدم، ومقابل إشغال الأمة الإسلامية عن التفكير في جهاد أعدائها وقضاياها المصرية الكبرى، ومقابل القضاء على معاني العز والكرامة في الأمة، حيث بددت الأمة أموالاً طائلة وأضاعت أوقاتاً طويلة لو استغلتها الأمة في الأعمال النافعة والصناعات المفيدة، لأصبحت الأمة في مقام الدول المتقدمة في المجالات المختلفة)[1].

لقد أصبحت هذه اللعبة المقيتة مِعْولاً هدّاماً استخدمه الأعداء في قتل الروح الجهادية لدى الشباب المسلم حيث أصبح البطل في نظر الناس ليس هو المجاهد الذي يدافع عن حياض الأمة وكرامتها، بل لاعب الكرة الذي يهدف في المرمى!! وهذا ما يريده الأعداء أن نبقى في ذلّنا وجهلنا وتبعيتنا لهم والله المستعان.

السبيل إلى الجهاد والنهوض بالأمة من كبوتها:

الداء والدواء: في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: (إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سَلَّطَ الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)[2].

ففي الحديث بيانٌ للأمراض التي ستصاب بها الأمة ويكون ذلك سبباً لتسلط الأعداء، ثم بيان السبيل لعلاج هذه الأمراض، والأمراض التي يصاب بها المسلمون على ضوء الحديث تتلخص في ثلاثة أمور:

١- التكالب على الدنيا.

٢- التحايل على شرع الله.

٣- ترك واجب الجهاد في سبيل الله.

---

(١) «القول المبين» للشيخ مشهور سلمان (٣١٨).

(٢) الحديث عن ابن عمر كما في الصحيحة و«صحيح الجامع الصغير» (٤٢٣).

التتار الذين نزعت من قلوبهم الرأفة والرحمة بسبب فساد المسلمين آنـذاك وانكبابهم على الشهوات والملذات وتركهم لأعظـم فريضـة فرضهـا الله علـى الأمـة ألا وهـي الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله.

رابعاً: الألعاب المسلية: ومن أساليب الأعداء في إشـغال المسـلمين عـن قضايـاهم المصيرية والفكرية هو استحداث ضروب من الألعاب الرياضية والمسلية التي أخـذت حيزاً كبيراً من حياة الأمة، كل ذلك من خلال التوجيه الإعلامي الماكر والذي يلعـب دوراً في صرف المسلمين عن دينهم وآخرتهم، جاء في البروتوكول الثـالث عشـر مـن (بروتوكولات حكماء صهيون) ما نصه (.. ولكي تبقى الجماهير في ضلال لا تـدري ما وراءها وما أمامها وما يراد منها فإننا نستعمل زيادة علـى صـرف أذهانهـا بإنشـاء وسائل المباهج والمسليات والألعاب المضحكـة وضـروب الرياضـة واللهـو، ومـا بـه الغذاء للذاتها وشهواتها، والإكثار من القصور المزوقـة والمبـاني المزركشـة ثـم نجعـل الصحف تدعو إلى مباريات فنية ورياضية ..)[1].

قلت: ومن هذه الألعاب الرياضية الـتي شـغلت المسـلمين عـن عدوهـم الحقيقـي وصرفت جل طاقتهم إليها هي (لعبة كـرة القـدم) وقـد كتـب الشـيخ الأخ مشـهور سليمان في «القول المبين» تحت عوان «تخلف الآلـف مـن مشـاهدي كـرة القـدم عـن صلاة الجمعة» يقول: (جمهور الكرة الذي يبلغ عددهـم مئـات الألـوف يجتمعـون في وقت صلاة الجمعة في المدرجات، ويناديهم منادي من السماء، ولكن .. أنـى لهـم أن يستجيبوا وقد تعطلت عقولهم، ومـاتت أحاسيسـهم مقـابل مـاذا؟ مقـابل التعصـب المقيت للفرق الرياضية المختلفة فهذا يشجع فريقاً، وذاك يشجع فريقاً آخر بل إن أهل البيت الواحد ينقسمون على أنفسهم هذا يتبع فريقاً، وذاك يتبع فريقاً آخر، ولم يقـف الأمر عند حد التشجيع بل تعداه إلى سخرية أتباع الفريق المنتصر واسـتهزائهم بأتبـاع المنهزمين وفي نهاية المطاف يكون هناك الشجار والعـراك الـذي يـدور بـين مشـجعي

---

(١) انظر «بروتوكولات حكماء صهيون» (١/ ٢٥٨) عجاج نويهض.

قوة القلب وشجاعته هي المطلوبة:

يقول ﷺ: (ألا وإن في الجسد مُضْغَة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)[1]، ولاشك أن مدار صحة الأعمال -أعمال الجوارح- من إقدام وقتال وقوة وإنفاق على شجاعة القلب وقوته وصحته، وبقدر قوة اليقين بالله واليوم الآخر يتبع ذلك قوة ما يصدر عنه من أعمال وطاعات يقول شيخ الإسلام في هذا الصدد: (والشجاعة ليست هي قوة البدن -وإن كانت مطلوبة- وقد يكون الرَجُلُ قوي البدن ضعيف القلب، وإنما هي قوة القلب وشجاعته، فإن القتال مداره على قوة البدن وضعفه، وعلى قوة القلب وخبرته به، والمحمود منهما ما كان عن علم ومعرفة، دون السهو الذي لا يفكر صاحبه، ولا يميز بين المحمود والمذموم، ولهذا كان القوي الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب، حتى يفعل ما يصلح، فأما المغلوب حين غضبه فليس بشجاع ولا شديد)[2].

وسبب ضعف قوة القلب وشجاعته يعود إلى مرض القلب الذي سببه ضعف الإيمان، إمّا بضعف القلب واعتقاده، وإمّا بضعف عمله وحركته، فيدخل فيه من ضعف تصديقه ومن غلب عليه الجبن والفزع وغير ذلك، كلها أمراض، وكذلك الجهل والشكوك والشبهات التي فيه[3].

قلت: وكيف يمكن لشاب أن يجاهد أو يثبت في المحن والشدائد وقلبه خراب من الإيمان بالله واليوم الآخر وأخلاقه وسلوكه تتماشى مع الفساد والرذيلة وحب الراحة والكسل وبدنه ثقيل عن عمل الصالحات وأداء الصّلوات في المساجد، وفي هذا الصدد يُذكر عن هذا اليهودي الذي أمسك بالشاب الفلسطيني وهو يضرب بالحجارة وقال له: (لا يمكنكم إخراجنا من القدس إلا أن يكون عددكم في صلاة

(١) رواه البخاري (٥٢، ٢٠١٥)، ومسلم (١٥٩٩) عن النعمان بن البشير.
(٢) «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (الحسبة) لابن تيمية (١٠٧).
(٣) «العقود الدرية» (١٥١).

لقد آتى الله شيخ الإسلام رحمه الله ذكاءً وحرصاً ومعرفة بالواقع الذي هو فيه فنظر مَلِيّاً إلى ما يدور حوله فرأى ما يلي:

رأى أمّة مغلوبة على أمرها مهانة من قبل الأعداء من التتار والصليبيين.

ورأى أمّة يسودها الجهل المطبق وليس هناك من يأخذ بيدها إلى نور العلم وعلى الرغم من وجود رجالٍ أفذاذٍ لهم من العقل والحرص . إلا أنهم يعيشون في واقع غير واقعهم متناسين ما هم فيه.

ورأى أيضاً أن الأمّة قد سَلَّمَت قيادتها إلى دعاة البدع والفلسفات المهلكة وأصحاب الطرق الصوفية معطلين بذلك فريضة الجهاد وقتال الذين اغتصبوا حق الله وحق عباده.

ورأى ما يراه كل مصلح غيور على دينه وأمّته فساءه ذلك وآلمه.

فكان أول ما بدأ به شيخ الإسلام أن حصر الأمراض ومَيَّزَها وحَدَّدَ عوامل السقوط في الأمّة، ثم حدد الأدوية التي يعالج بها الأمراض والمشاكل، فالعلم في هذه الأمور لا يكفي ما لم يقترن معه الذكاء والحرص والإخلاص لدين الله، فَبَيَّنَ أن أصل بلاء الأمة في كل زمان ومكان هو البعد عن القرآن والسّنة واتّباع هدي السلف، والخير كله في اتّباع الكتاب والسّنة والاستضاءة بنورهما فيقول رحمه الله بعد أن ذكر ما عاقب الله به أهل السيئات في الدنيا وما أعده لهم في الآخرة: (ومن تَدَبَّرَ الفتن الواقعة رأى سببها ذلك، ورأى أن ما وقع بين أمراء الأمة وعلمائها ومن دخل في ذلك من ملوكها ومشايخها ومن تبعهم من العامة من الفتن هذا أصلها يدخل في ذلك أسباب الضلال والتي هي الأهواء الدينية والشهوانية وهي البدع في الدين والفجور في الدنيا)[1].

ويقول أيضاً: (ومن المعلوم، بما أرانا الله من آياته في الآفاق وفي أنفسنا وبما شهد في

---

(١) «الحسنة والسيئة» (٩١) لابن تيمية.

كتابه أن المعاصي سبب المصائب، فسيئات المصائب والجزاء من سيئات الأعمال، وأن الطاعة سبب النعمة، فإحسان العمل سبب لإحسان الله)[1].

والأمراض التي تصاب بها الأمة ويقعدها ذلك عن الجهاد في سبيل الله تتلخص في أمرين هما: حُبُّ الدنيا وكراهية الموت.

ومعلوم أن النفوس متى تَعَلَّقَتْ بالدنيا وركنت إليها أقعدها ذلك عن التطلع إلى الآخرة والعمل لها، ومن ثم تفقد حاسة الاتِّعَاظ والتفكر وحينئذ لا تصلح هذه النفوس أن تجاهد في سبيل الله أو تدعو إلى دينه.

وقد بين الشيخ رحمه الله في الغزوة التي قاتل فيها أنه لما اشتدّ الأمر فرّ كثير من المسلمين خوفاً من الموت والقتل وبهذا خسروا الدين والدنيا قال تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الأحزاب:١٦]، يقول الشيخ رحمه الله في ذلك: (والتجربة تدل على مثل ما دَلَّ عليه القرآن، فإن هؤلاء الذين فَرُّوا في هذا العام لم ينفعهم فرارهم بل خسروا الدين والدنيا، وتفاوتوا في المصائب، والمرابطون الثابتون نفعهم ذلك في الدين والدنيا، حتى الموت الذي فرّوا منه كثر فيهم، وقل في المقيمين فمات مع الهرب من شاء الله، والطالبون للعدو والمعاقبون له لم يمت منهم أحد ولا قتل، بل الموت قل في البلد من حين خروج الفارّين، وهكذا سنّة الله قديماً وحديثاً، ثم قال تعالى: ﴿وَإِذاً لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ يقول لو كان الفرار ينفعكم لم ينفعكم إلا حياة قليلة ثم تموتون لا بد منه، وقد حُكِيَ عن بعض الحمقى أنه قال: فنحن نريد ذلك القليل وهذا جهل منه بمعنى الآية، فإن الله لم يقل: أنهم يتمتعون بالفرار قليلاً، لكن ذكر أنه لا منفعة فيه أبداً)[2].

إن الله ربط الأسباب بالمسببات في هذه الحياة، فجعل جزاء القعود والكسل الخيبة

---

(١) «الحسنة والسيئة» (٧٦) لابن تيمية.

(٢) «العقود الدرية» (١٥٨).

الفجر في المساجد مثل عددكم في صلاة الجمعة) أو نحو ذلك، فقد عرف هذا اليهودي على ضلاله وكفره السرَّ في ضعف المسلمين وانحطاطهم ألا وهو التخلف عن صلاة الجماعة.

الابتلاء يخرج خبث النفوس ويطهرها من الأدران:

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو الله وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ الله كَثِيراً﴾ فأخبر سبحانه أن الذين يُبتلون بالعدو كما ابتلي رسول الله ﷺ فلهم فيه أسوة حسنة، حيث أصابهم مثل ما أصابه، فليتأسّوا به بالتوكل والصبر، ولا يظنون أنّ هذه نِقم لصاحبها وإهانة له، فإنه لو كان كذلك ما ابتُلي بها خير الخلائق بل بها ينال الدرجات العالية، وبها يكفّر الله الخطايا لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً.

والابتلاء إنّما يكون على الذنوب والخطايا من فساد النيّة والعُجب والخُيلاء والإعراض عن الكتاب والسّنة والمحافظة على فرائض الله فمن حكمة الله ورحمته أن يبتلي المؤمنين ليمحّص الله الذين آمنوا حتى ينيبوا إلى ربهم ويرجعوا إلى ربهم يقول شيخ الإسلام لمّا هُزم المسلمون أمام التتار في عهد الشيخ رحمه الله أي قبل موقعة شقحب: (فقد كان في نفوس كثير من مقاتلة المسلمين ورعيتهم من الشر الكبير ما لو يقترن به ظفر بعدوهم- الذي هو على الحال المذكورة- لأوجب ذلك من فساد الدين والدنيا مما لا يوصف، كما أن نصر الله المسلمين يوم بدر كان رحمة ونعمة، وهزيمتهم يوم أحد كان نعمة ورحمة على المؤمنين)[1].

وسنة الله في خلقه وقانونه في انتصار المبادئ أنه لابد من المحن قال تعالى: ﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُواْ أَن يَقُولُواْ آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:١-٢]، فإن السّرف

(١) «العقود الدرية» (١٣٠).

والخذلان وجعل جزاء الجهـاد والدعـوة والنصـرة في سـبيل الله التمكـين في الأرض والفوز في الآخرة قال تعـالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ [النور:٥٥].

كيف يرجع المسلمون إلى دينهم:

والحل وارد في الحديث السابق ذكره وهو قوله ﷺ: (حتى ترجعوا إلى دينكم).

والرجوع إلى الديـن يتمثـل بـالعودة الصحيحـة إلى الإسـلام الصحيـح في العبـادة والسلوك، ثم التربية وفق معاني الإسلام وإليك بيان ذلك:

أما في التوحيد: فلا بدّ من فهم العقيدة على الوجه الصحيح بكل معانيه ولا يكون ذلك إلا من خلال القرآن والسّنة، ثم الحذر مـن كـل أنـواع الشّـرك علـى اختـلاف أنواعها، ثم التدرج في تربية المسلمين علـى أصـول الإيمـان شـيئاً فشـيئاً حتـى يصـل المسلمون إلى أسمى درجات الإخلاص والتوكّل واليقين وأمـا في السـلوك فـالواجب الاقتداء برسول الله ﷺ في تربية النفوس علـى الأخـلاق الفاضلـة وأن يكـون ذلـك الاقتداء امتثالاً حقيقيّاً ظاهراً وباطناً، وهذا يحصل بمجاهدة النفس والموازنة بين العلم والعمل، حتى تصل النفس إلى الكمالات الإنسانية، وبهذا يستحق المسلمون وعد الله الذي وعدهم به.

التوحيد والاجتماع من أعظم اسباب النصر:

يقول الشيخ رحمه الله في رسالة ينصح بها السلطان لمّا قَدِم التتر سنة تسع وتسـعين وستمائة إلى حلب، وانصرف عسكر مصر وبقي عسكر الشـام: (فـالله .. الله عليكـم بالجماعة والائتلاف على طاعـة الله ورسـوله والجهـاد في سبيله، يجمـع الله قلوبكـم

والتّوسع في المباحات والتقلّب في النعم ينخر في النفوس كما ينخر السوس في الخشب، وكلما كانت النفوس تعيش على الزهد وتحمّل المشاق والتقشّف فإنها تستطيع مواجهة الأحداث وتحمل البلاء إذا ادلهم الخطب واشتد البلاء، ويذكر عن أحد المجاهدين في أحداث كابل أن استشهد من أسرته سبعة عشر شخصاً ولم يبق له من الدنيا أي شيء، فأشار عليه أحد القادة أن يراجع بعض المسؤولين فقال له: لا أراجع أحداً فقلت له بعد أن جلس حتى منتصف الليل أوصلك بالسيارة إلى بيتك فقال: إن سيارتي لا تفارقني وأشار إلى رجليه!![1].

فهذا الرَجُلُ أبت عليه نفسه أن تنحني للعواصف وأن تلين للظروف رغم الأحداث التي تزلزل الجبال.

في المجال العملي: من يَتَتَبّع الآيات القرآنية يجد أن الله وضع للمسلمين مبادئ عامّة يتكون منها قانون الجهاد والقتال في سبيل الله، وهذا القانون يقوم على ثلاثة عناصر رئيسية هي:

١- تقوية الروح المعنوية.

٢- إعداد القوة المادية.

٣- التنظيم العملي للجهاد.

وغرضنا في هذا البحث التركيز على العنصر الأول لسببين:

أولاً: أن وضع المسلمين من حيث أنهم محاطون بدول كافرة، ومبتلون بمن لا يحكم بشريعة الله في الأرض، وهذا مما لا يساعدهم على أن يعملوا عملاً جماعياً أو سياسياً، أو حتى يتخذوا من الوسائل المادية ما يمكنهم مقارعة الظلمة، مع ما يجرّ ذلك -إن حصل- من تضحيات جسام وهدر لطاقات الأمة فيما لا فائدة فيه من الناحية

(١) «عبر وعظات»، تأليف الدكتور عبدالله عزام رحمه الله (٢٦).

في قلوب المسلمين، ومنها:

التربية العميقة الصارمة على معاني العقيدة:

ذكرنا فيما سبق أن العودة الصحيحة إلى الإسلام والرجوع إليه يتمثّل بفهم العقيدة فهماً صحيحاً ثم التربية على معانيها ولابد من الكلام على ذلك بشيء من التفصيل:

مما لا شك فيه أنه لابد من تعلّم تفاصيل الإسلام بالقدر المستطاع وأن يكون المصلحون على بصيرة ودراية تامة تمكنهم من معرفة ما يجوز وما ينبغي فعله وما لا ينبغي فعله، ومن أعظم ما ينبغي تعلّمه هو معاني العقيدة الصحيحة وما يضادها من وسائل الشرك، لأن المسلم قد يقع في الشرك وهو لا يدري، جهلاً منه بخطورة الشرك وأثره وإذا فقد المسلمون هذه المعرفة بالعقيدة وما يضادّها من أمور الشرك أصبحوا فريسة سهلة للأعداء.

وهكذا كان نهج الأولين من الصحابة رضي الله عنهم وهو تعلم العقيدة يقول ابن مسعود: (كنا اذا قرأنا عشر آيات لم نتجاوزها حتى نتعلم ما فيها من العلم والعمل فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً) ولا يكفي هذا العلم التفصيلي ما لم يتبعه التربية على معاني هذا العلم وصياغة السلوك والأخلاق وفق معاني هذا العلم، ذلك لأن تعلم العلم وحِفْظَهُ ومدارسته دون أن ينصبغ به القلب ودون أن يظهر أثره على الجوارح فإنه لا ينفع في التقويم والإصلاح، فضلاً عن ذلك فإن تعلّم العلم دون أن يتبعه عمل أو تطبيق فإن صاحبه يكون عرضة للإنزلاق أو الرِّدة، والعياذ بالله في أيام الفتن وما أكثرها في زماننا هذا.

فما لم يكن للمسلمين من العلم النافع والعمل الصالح والتربية الحقّة فلا يمكن - والحال هذه- الثبات أمام الأعداء الذين يملكون من العدة والعدد ما لا نملكه نحن.

من معاني التربية الحقة:

ومن معاني التربية الحقة المبنية على العلم النافع أن يُشدّ المسلمون إلى غاية عظيمة

العلمية، بل يكلفهم الجهود الضخمة التي لو استغل عشر معشارها في التربية الحقّة على معاني العقيدة لحصل بذلك خير عظيم، ولسنا الآن بصدد توضيح ذلك، بل لبيان ما سنذكره من أهمية التركيز على تقوية العنصر المعنوي وقد ذكر شيخ الإسلام أن من أصول أهل السّنة والجماعة لزوم الجماعة وترك قتال الأئمّة وترك القتال في الفتنة ومن أصولهم أيضاً الصبر على جور الأئمّة ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصلاة كما في الحديث: (أدّوا إليهم حقوقهم وسلو الله حقوقكم)[1].

فإذا حصل منهم الكفر البواح فعند ذلك ينظر في المصالح والمفاسد (وجماع ذلك داخل في القاعدة العامّة فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد والحسنات والسَّيِّئات أو تزاحمت فإنَّه يجب ترجيح الراجح منها)[2] واعتبار المفاسد والمصالح كما ذكر الشيخ لا يكون بالأهواء والاجتهادات الخاصة بل بميزان الشريعة يقول الشيخ رحمه الله: (فمتى قدر الإنسان على اتّباع النصوص لم يعدل عنها، وإلاّ اجتهد برأيه لمعرفة الأشباه والنظائر، وقَلَّ أنْ تعوز النصوص من يكون خبيراً بها وبدلالتها على الأحكام)[3].

ثانياً: وهو المقصود هنا، وهو تقوية المعنويات لدى المسلمين وحمايتها من المؤثرات أصل في صلاح الدين والدنيا، فإذا صلحت المعنويات واستقامت جاءت القوة المادية تبعاً لها قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ اللهَ يَنصُرْكُمْ﴾ والمتأمّل في تاريخ المسلمين على امتداد التاريخ يجد أن المسلمين لم ينتصروا بالعدد والعدة -مع أنها مطلوبة- وإنما كان نصرهم بالقوة المعنوية وقوّة العقيدة في نفوسهم وثباتهم أيام المحن والشدائد كما حصل في غزوة بدر وغيرها من الغزوات.

فلا بد للمسلمين من أن يتوجّهوا بكلّيتهم في تقوية الروح المعنوية والجهادية في قلوبهم، وقد ذكرنا شيئاً من ذلك على أن هناك بعض الوسائل التي تقوّي المعنويات

(١) رواه البخاري (٧٠٥٢) ومسلم (١٨٤٣).

(٢) «الحسبة» (٧٧).

(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «الحسبة» لابن تيمية (٧٧).

وأن تتوجّه طاقاتهم إلى تحقيقها ألا وهي مرضاة الله والسعي في تحقيقها، بحيث يكون همّ المسلمين الأول والأخير هو تحقيق هذه الغاية في حياتهم فيكون حبهم وبغضهم وخوفهم ورجائهم لله وحده، وهذه الغاية لا تنال بالقعود والكسل والأماني الفارغة، بل تنال بالإخلاص والاجتهاد والعمل الدؤوب في تحقيق مرضاة الله وقد يتطلب ذلك مفارقة الأصحاب والأوطان والأولاد، فإن من يريد أن يكون تاجراً، فإنّه لا يدرك ذلك إلا بهذه الأمور فكيف بمن يريد الفوز في الدنيا بالتمكين في الأرض والفوز في الآخرة بالجنة ومرافقة النبيين والصالحين.

ومما يعين على بلوغ ذلك القصد جملة أمور نجملها فيما يلي:

أولاً: الاتصال الدائم بكتاب الله وتدبر معانيه، وفتح منافذ القلب إليه، كي يَزيل نورُ القرآن ما على القلب من أهواء وظلمات ويبعث فيه الحياة والروح فينشرح القلب ويتّسع ويقوى داعي الخير والطاعة وابتغاء مرضاة الله، ويضعف داعي الشر والمعصية وحب الهوى قال تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾ [الإسراء:٩].

ثانياً: وكذلك العكوف على دراسة سيرة النبي ﷺ في جميع مراحل الدعوة سواء كان قبل البعثة أو بعدها والاستفادة من ذلك في الحياة العملية والمجال الدعوي، فإنه ما من حالة يمر بها الداعي إلاّ وفي حياة الرسول ﷺ ما هو قريب من ذلك أو شبيه به، ولأن حياة الرسول في الحقيقة هي الترجمة العملية لما في القرآن من أحكام وفضائل وآداب.

وما أحوج المسلمين اليوم إلى دراسة السيرة النبوية والاستفادة منها في جميع مناحي الحياة، خصوصاً في وقتنا الحاضر الذي ازدادت فيه المحن واشتد البلاء على المسلمين، وأصبح للكفار دول يثيرون الشبه والشكوك حول أحقية هذا الدين القويم، والذي زاد من المحنة وجود أدعياء الإسلام باعوا دينهم بعرض من الدنيا، فهؤلاء بدأوا يساعدون الكفرة على باطلهم، فعلى المسلم الاستفادة من السيرة النبوية وأن يجعلها له زاداً في الدعوة والثبات على الحق، وليعلم المسلمون أن الرسول الكريم وأصحابه

الأبرار واجهوا محناً شديدة تزلزل الجبال مع ضعفهم وقلتّهم يومئذ فلم يزدادوا إلاّ صبراً ويقيناً ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُواْ هَـذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾[1].

إعداد القوة المادية:

ولا يعني التركيز على القوة المعنوية فإنَّ إهمال الجانب المادي فإنَّ فائدة القوة المادية من إعداد وتهيأة لا تُنكر، فإن فيها تقوية لنفوس المؤمنين، وهذا المعنى له أثر واضح في النصر، إضافة فإن فيه إلقاء للرعب في قلوب الكفار، ولكن يجب أن يكون ذلك مما يوافق حال المسلمين ووضعهم وإمكانياتهم، ولكل مقام مقال، فليس من الحكمة -والله أعلم- الزج بالمسلمين في مضمار الإعداد المادي من تسلح وقتال -إن أمكن ذلك- فإنه مما يجلب انتباه الكفار وأنظارهم على تحركات المسلمين وخططهم، بل ينبغي في مثل هذه الظروف أخذ الحذر والحيطة مع القيام بكمال الإعداد النفسي على أتم قيام، وأرى والله أعلم أنَّ مما يلائم ظرف المسلمين اليوم بسبب ضعفهم وقلتهم وتفرقهم وقوة الكفرة وتفوقهم في العدة والعدد هو النظر في امور:

أولاً: ما سبق ذكره من الاهتمام بالعقيدة وغرسها في نفوس المسلمين وتربيتهم وفق معاني العقيدة تربية صارمة تؤهلهم لحمل الراية وإعلاء كلمة الله في الأرض، وليس هذا بالأمر الهين بل يحتاج إلى بذل المزيد من الجهد وتوحيد الصف على طاعة الله ورسوله.

ثانياً: إفهام المسلمين أنَّه لابد من أن يكون المستقبل لهذا الدين، مهما طال الزمن واشْتَدَّتْ الغربة وعلا صوت الكَفَرة، فلا ينبغي إلقاء اليأس في القلوب، ولهذا جاء تبشير الرسول ﷺ ولأصحابه بالفتح والنصر في وقت تكالب فيه المشركون وتألّب عليه الأحزاب من كل جانب قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ١).

يأتِكم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤].

واقع المسلمين لا ينقض سنة الله في نصره للمؤمنين:

ومما يجدر ملاحظته في هذا الجانب، أن وعد الله بالنصر للمؤمنين لا يتخلف عنهم إلاّ إذا تخلّفت أسبابه وشروطه، لأن الله لا يخلف الميعاد، وهذا الوعد قائم إلى يوم القيامة ومن أسباب تخلّف نصر الله ووعده عن المسلمين:

١- عمل الذنوب والمعاصي فإنها سبب المصائب في الدنيا والآخرة قال -تعالى-: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠]، فالواجب على المسلمين أن يُكثروا من الاستغفار والتضرع والدعاء إلى الله أن يفرّج ما بهم من محن وشدائد وأن يبدّل حالهم إلى أحسن حال.

٢- ومن أسباب تخلّف النصر هو التّنازع والاختلاف وهذا يؤدي إلى تأخرّ النصر عنهم حتى يكون مصدر التلقي في جميع الأمور هو القرآن والسّنة قال -تعالى-: ﴿يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ * وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦].

٣- مما يدخل في إعداد القوة مما يلائم حال المسلمين هو تربية الناشئة على حب العلم وطلبه وحب الجهاد في سبيل الله، من خلال تعليمهم الرماية والفروسية والسباحة وأن القصد من وراء ذلك هو جهاد أعداء الله، ومما يدخل في ذلك أيضاً تحديث النفس بالجهاد والمرابطة والمجاهدة في ساحات القتال، فإن مجرد التفكير في ذلك وإن لم يحصل فإنه فيه ثواباً وأجراً وفي الحديث: (ومن سأل الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه)[١].

(١) الحديث صحيح رواه مسلم (١٩٠٩).

قد يتأخر نصر الله للمؤمنين ويطول جداً:

وقد يقول قائل إن تطبيق هذه الأمور يحتاج إلى زمن طويل فنقول ليس المهم ذلك، المهم هو تطبيق أوامر الله وتنفيذها، فالمطلوب من المسلم أن يبلّغ ويبذل جهده، وليس المطلوب منه أن يهتدي الناس ويطبقوا كلامه، وتأخر النصر قد يكون لحكمة بالغة من الله وذلك ليتحقق للمؤمنين النصر الأعظم والأكثر فائدة وهذا كله متوقف على تحقيق شروط الاستخلاف التي ذكرناها من قبل.

والدليل على ذلك أن نصر الله لرسوله ولأصحابه الكرام لم يتحقق في يوم وليلة، بل تأخر إلى سنة ثماني للهجرة، وبعد أن كابد المؤمنون أنواع شتى من الإيذاء والسخرية فصبروا على ذلك وأيقنوا بوعدالله فجاءهم عندئذ نصر الله فدخلوا مكة وأنجز الله لهم وعده ودخل الناس حينئذ في دين الله أفواجاً قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [سورة النصر]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١]

اللهم انصر دينك وكتابك وسنة نبيك وعبادك الصالحين

وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين.